

الهجاء و بواعته النفسية في شعر البوصيري

هادي رضوان*

أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة كردستان

تاريخ قبول: ١٣٩٤/٠٥/٢٦

تاريخ استلام: ١٣٩٣/٠٨/٢٢

الملخص

يمكن أن نقسم الهجاء في شعر البوصيري إلى: الهجاء الديني و الاجتماعي و الفردي. و نلاحظ في كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة بواعث نفسية مختلفة منها رغبته الشديدة في إفحام خصومه من اليهود والنصارى ومنها حرصه الشديد على الدفاع عن ديانة رسول مدحه في أكثر قصائده ومنها فقره و كثرة عياله من جانب و تحافته وقصر قامته من جانب آخر مما أدى إلى أن يضيّق بالناس ذرعاً وأن يظهر سخطه وكرهه لهم.

إن البوصيري في هجائه الديني يخاطب معاندي الإسلام وخصوصاً اليهود والنصارى في عصره ويرد عليهم بالاستدلالات العقلية والإشارات التاريخية وهذا النوع من الهجاء عنده يتسم بالصراحة والرصانة. و أما الهجاء الاجتماعي والفردي عنده. و إن كانت جذورهما في الدوافع الشخصية. فهما يهدفان إلى الإصلاح الاجتماعي ويتسم شعره في هذا المجال بالسذاجة والسلامة وعدم التكلف وهو في كثير من الأحيان مشوب بالفكاهة والسخرية.

و البوصيري في هجائه الاجتماعي يتعرض لبيان الفساد الشائع بين أرباب الحكم وموظفي الدولة في عصره وفي هجائه الفردي يصور المثالب الأخلاقية. إن التربية الدينية و حياة الشاعر الشخصية والمشاكل التي واجهها في المجتمع، كل أثرت على هذه أسلوب الشاعر في هذا الغرض الشعري تأثيراً مباشراً. و الكاتب في هذا المقال يتبع المنهج الوصفي. التحليلي ويتحدث عن أنواع الهجاء في شعر البوصيري ضمن تحليل النماذج الشعرية المناسبة.

الكلمات الرئيسية: الهجاء؛ البواعث النفسية؛ الهجو الديني؛ الهجو الاجتماعي؛ البوصيري.

١. المقدمة

يعرف البوصيري من خلال مدائحه النبوية؛ فالبردة والهمزية تعدان من أروع القصائد في مديح النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في الأدب العربي. فهما حظيتا بقبول حسن لا عند العرب فحسب بل في آداب سائر الشعوب أيضاً، فاهتم بهما الأدباء من المسلمين بالشرح والترجمة والتضمين والتشطير. و قلد البوصيري شعراء بارزون فأتوا بمدائح رائعة على نهج قصائده؛ فهو

الإمام المتبع في هذا الفن لا بسبب هاتين القصيدتين فقط، و لكن قصائده الأخرى في المديح، على العموم تتحلى بسمات فنية بارزة في حسن الصياغة وقوة السبك وجزالة الألفاظ. ولا نجد أثراً بارزاً لسائر الأغراض الشعرية في ديوان البوصيري سوى بعض المقطوعات فيها مداعبات وإلا الحديث عن الطبيعة ضمن إطار المدح وإلا الهجاء فهو كثير في شعر البوصيري. وبما أن العاطفة الدينية تغلب على شعره فمن الطبيعي أن يكون المهجو العقائدي والديني أكثر من غيره، فهو يهجو النصارى واليهود في قصيدة مستقلة. كما أنه يهجوها ويهجو المشركين والمنافقين في إطار مدائحه النبوية وحتى في سائر قصائده. هذا من جانب، ومن جانب آخر يتناول البوصيري الآفات التي كانت منتشرة بين موظفي الدولة آنذاك كالخيانة والسرقة والارتشاء والخلافات الطائفية وغيرها. على أن البوصيري في بعض هذه الأهاجي الاجتماعية يصدر عن دافع شخصي ويتعرض لكل من خان الأمانة من رجال الدولة في أثناء قيامه بما كُلف به.

والكاتب في هذا المقال يلقي الضوء على النواحي المختلفة من الهجاء في شعر البوصيري ويبحث عن الدلائل التي حث الشاعر على هذا الغرض الشعري بما أنه يعد من أكبر الشعراء في مجال المديح النبوي؛ فيحاول أن يجيب عن الأسئلة التالية:

ما هي بواعث الهجاء النفسية عند البوصيري؟

ما هي أنواع الهجاء الناشئة عن تلك البواعث النفسية المختلفة في شعر البوصيري؟

ما هي الخصائص التي تميز هجاء البوصيري عن الهجاء في شعر الآخرين؟

ولا يفوتنا أنه توجد بحوث قيمة عالجت القضايا المختلفة في شعر البوصيري وحياته. أما بالنسبة إلى الهجاء في شعره فنجد بحوثاً مختصرة متفرقة في طيات الكتب النقدية و التاريخية منها ما أتى في كتاب تاريخ الأدب العربي لعمر موسى باشا (١٩٩٩م) فإنه يتحدث عن جوانب من الهجاء العقائدي في شعر البوصيري، وما أتى في كتاب الفن ومذاهبه في الشعر العربي لشوقي ضيف (١٩٦٠م) من الهجاء الساخر والصور الكاريكاتيرية في شعره، وما أتى في كتاب الشعر العربي أيام المماليك ومن عاصرهم من ذوي السلطان لخالد إبراهيم يوسف (٢٠٠٣م) من نماذج من الهجاء الديني و الحديث عن اليهود والنصارى، وما أتى في كتاب الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني لقصي حسين (٢٠١١م) من إشارات مختصرة إلى هجائه. وتحدث نبيل خالد نجاح أبو

علي في كتاب البوصيري الموجود في صفحته الشخصية (٢٠١٠م) عن نماذج مختلفة من شعر الهجاء في ديوان البوصيري ولكن لا يكاد يوجد بحث جامع لأطراف المسائل المتعلقة بهجاء البوصيري.

٢. الهجاء و بواعثه

٢-١. المعنى اللغوي و الإصلاحي

الهجاء ضد المدح وبابه «عدا». يقال: هجأه يهجوهُ، هجواً وهجاءً وتهجاءً، بمعنى: شتمه بالشعر. قال الليث: هو الوقيعة في الأشعار. والمرأة تهجو زوجها: أي تذم صحبته؛ ولا يقال: هجيتُهُ (انظر: ابن منظور، ٢٠٠٠، ذيل مادة هجو؛ والفيروز آبادي، ٢٠١٠؛ و الرازي، ١٩٩٥: مادة هجا). فالوقيعة في الشعر أو الشتم بالشعر كما يبدو، من المعاني اللغوية للهجاء، كما أن منها التعداد؛ يقول الزنجشيري: «هَجُوَ: تعلم هجاء الحروف و تهجيتها و تهجيتها، و هو يهجوها و يهجيها و يتهاجها: يعددها. و قيل لرجل من قيس: أتقرأ القرآن؟ فقال: والله ما أهجو منه حرفاً» (الزنجشيري، ٢٠٠٠م: ٦٩٦). ثم إن كل ما أتى في بيان المعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة يدور حول هذه المعاني. يقول محمد محمد حسين: «و نحن لا نستطيع أن نرجح معنى من هذه المعاني على أنه أصل للمادة، فقد يكون الهجاء بمعناه الأدبي مأخوذاً من الضفدع؛ فهو قبيح الشكل بشع الصوت؛ وقد يكون مأخوذاً من اشتداد الحرّ، ففيه معنى التكيل و التعذيب؛ وقد يكون مأخوذاً من الأصل اليائي، فهو يكشف عن سيئات المهجو. ولعل الهجاء بمعنى تعديد حروف الكلمة» (حسين، ١٩٦٩: ١٨). و يقول بعض الباحثين: «وما أراه أن معاني المادة تدور حول الإقذاع والبشاعة والنكال وكشف العيوب والازدراء بحيث يشمل غيرها من المعاني الغريبة» (يوسف، ٢٠٠٣، ص ٧١)، ويقول حازم: «و كان ما يتعلق من الذكر القبيح بالأشياء المنافرة لهوى النفس والأشياء المباحة من رضاها كلاهما داخل تحت قسمة واحدة وهي الهجاء» (القرطاجي، ١٩٨٦: ٣٥٢). ويقول في محل آخر: «وطريق الهجاء أيضاً يقصد فيه ما يعلم أو يقدر أن المهجو يجزع من ذكره ويتألم من سمعه مما له به علقه» (المصدر نفسه: ٣٥٢). فأحسن القرطاجي عند ما صرح بأن من شرط الهجاء أن يتألم المهجو مما يسمعه.

أما بالنسبة إلى الغرض والغاية، ففرق بعض الباحثين بين الهجو والتهكم؛ وهو «أن الهجاء صادر عن نفس واجدة غاضبة حاقدة والتهكم صادر عن نفس ساخرة ناقدة مبرأة من الحقد والموجدة. فالغرض من الهجاء التحريج والتشهير والإنقاص والعدوان على حين أن الغرض من التهكم التهذيب

والتقويم والإصلاح، ويكثر في المهجاء السبّ والإقذاع، لكن التهكم لا سب فيه ولا إقذاع» (الحويني، ٢٠٠١: ١٧٧). فالتهكم عند بعض، لون من السخرية يراد به نسبة عيب إلى شخص أو تفخيم عيب في شخص وسيلةً إلى تهذيبه وإصلاحه ليخاف ذلك العيب إن لم يكن فيه وليبرأ منه كَلِّه أو بعضه إن كان فيه، فهو إذاً نوعٌ من الزجر والردع شبيهٌ بالعقوبة (المصدر نفسه: ١٧٧؛ قريحه، ١٩٩٨: ٢١٥).

على أن بعض الباحثين يعتقد أن المهجو في معناه الحقيقي ليس القذف والإفحاش والسبّ، بل هو الحديث عن معائب الفرد والاجتماع ومقابلتها، فالهدف منه هو الإصلاح ورفع النقائص (كاسب، ١٣٦٦: ٣١). فعلى رأي هذا الباحث لا فرق بين التهكم و المهجو؛ بل التهكم نوع من المهجاء، أو قُلْ إنه المهجاء الحقيقي وهو يخدم المجتمع والشخص لسعيه في الإصلاح، فليس الغرض من المهجاء. عنده. التجريح والتشهير والإنقاص فقط؛ بل قد يكون الرغبة في إصلاح شؤون الحياة والناس. وهذا قريبٌ مما قاله قدامة و ابن رشيقي في مقام البحث عن درجات المهجاء وعيوبه (قدامة، د.ت: ١٨٧؛ القيرواني، ١٩٨١، ج ٢: ١٧٤).

٢-٢. بواعث المهجاء

المهجاء غرض مستقل من الأغراض الشعرية المتنوعة، فهو بناءٌ شعريٌّ كما هو الحال في المديح والغزل والرثاء. وهو ليس هدماً كما زعمه العجاج؛ أتى في كتاب الشعر والشعراء أنه «قيل للعجاج إنك لا تحسن المهجاء؟ فقال إن لنا أحلاماً تمنعنا من أن نظلم وأحساباً تمنعنا من أن نُظلم وهل رأيت بانياً لا يحسن أن يهدم؟ وليس هذا كما زعم العجاج ولا المثل الذي ضربه للمهجاء والمديح بشكل؛ لأن المديح والمهجاء بناءٌ» (ابن قتيبة، ١٩٦٨، ج ١: ٩٤-٩٣).

وهذا الغرض يشمل أنواعاً مختلفةً بحسب الغاية التي تحث الشاعر على المهجاء وبحسب البيئة والثقافة اللتين يترى الشاعر فيهما وبحسب مقدرة الشعراء أيضاً. فإن منهم من يتيسر له نوع من المهجاء دون آخر، كما هو الحال في الأغراض الشعرية أيضاً. فمنهم من يتيسر له المراثي ويتعذر عليه الغزل ومنهم من يسهل عليه المديح ويعسر عليه المهجاء مثلاً.

ويمكن أن نقسم المهجاء بالنسبة إلى البواعث المختلفة إلى الأنواع التالية:

أ) المهجاء الديني و العقائدي

و هذا النوع من المهجاء سار في أسلوبه على سبيل الجاهلية وشعرها. فاعتمد على الأنساب والقبيلة وحمية الجار والدفع إلى الثأر وذم الجبن والعورات والمثالب وأضاف إلى ذلك ما قام

فيالدين الجديد من تعبير بالشرك ومخالفة الله وعبادة الأوثان والتهديد والوعيد بنار جهنم والعذاب فيها. فاستفاد من القرآن الكريم وأخذ من معانيه و آياته في هذا الباب (الدهان، ١٩٥٨: ٧٠).

و القرآن الكريم ألهم الشعراء في هذا النوع من الهجاء، فالقرآن قد هجا المشركين والمنافقين واليهود بأسلوبٍ جديد يعتمد تسفيه معتقداتهم ومناقشة حججهم ثم إبطالها بعد كشف زيفها وتهافتها وفضح ما يسرونوما كانوا به يتآمرون (العاني، ١٩٩٦: ١١٦). والشاعر الذي يمثل هذا النوع من الهجاء في العصر الإسلامي هو حسان بن ثابت الأنصاري، فهو كان يُعجل لسانه في الهجاء وفتون الشعر الأخرى، فراح يدافع عن الدين الجديد ويدفع عنه الخصوم والأعداء بلسان جاهلي ومعانٍ جاهلية، فقد نشأ عليها وأسَّ، لذلك كان يعالج الفخر والحماسة فيعدد الأيام والانتصارات كما كان يفعل الجاهليون من زملائه ولكنه أضاف إليها صوراً إسلاميةً زين بها شعره (الدهان، ١٩٥٨: ٧١). والبوصيري يمثل الهجاء الديني في عصره، فهو يهجو اليهود والنصارى بطريقتين مختلفتين في أسلوبهما، بالدليل العقلي وبالاعتماد على التاريخ كما سنشير إليه بالتفصيل.

ب) الهجاء الاجتماعي

و في هذا النوع من الهجاء يبحث الشاعر عن سوء الحالة الاقتصادية وقلة الدين وضعف الخليفة وذم البلدان وهجاء الدهر وسقوط المرأة وهجاء الممالك والحكومات. (المصدر نفسه: ٧٧) فهو نقد اجتماعي يهدف إلى الإصلاح في حياة الناس؛ فلا يعده عدد من الباحثين. كما سبقت الإشارة إليه. من الهجاء أصلاً. و يمكن أن ندرج في هذا النوع من الهجاء، الهجاء السياسي، ويبدو أن شعراء العرب قد فهموا الهجاء السياسي على أنه حماسة وفخر وهجوم لم يعيروا فيه أعدائهم ومذاهبهم ولم يقدعوا في ذلك إقذاعهم في الأعراض و الأنساب و بيان المثالب والمعائب و رسم الخلال الذميمة كالجن والبخل والبشاعة. (المصدر نفسه: ٦٦).

ج) الهجاء الشخصي

و هو الذي يتعرض فيه الشاعر لشخص بعينه وهو المراد بأقوال كثيرٍ من الناقدين القدماء في مقام البحث عن الهجاء. يقول ابن رشيقي: «و جميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجوداً وترك الفحش فيه أصوب إلا جريراً وسلك طريقة في الهجاء سواءً وعلي بن العباس ابن الرومي، فإنه كان يطيل و يفحش وأنا أرى أن التعريض أهجى من التصريح؛ لاتساع الظن في التعريض

وشدة تعلق النفس به والبحث عن معرفته وطلب حقيقته» (القيرواني، ١٩٨١، ج ٢: ١٧٢). فمن الهجاء الشخصي الواقعة في الأعراض والأنساب وكان من المبتدعين فيه بشائر بن برد، فقد كان يقول: إني وجدت الهجاء المؤلم آخذاً بضبع الشاعر من المديح الرائع؛ فبالغ فيه وأسهب (الدهان، ١٩٥٨: ١٧).

و من الهجاء الشخصي ما يسمى بالهجاء الساخر، «فقد نشأ على يد طائفة من مجّان المجّائين نوع من الهجاء القصير اللاذع الذي لا يتجاوز البيتين أو الثلاثة، وهو هجاء خفيف الروح، سهل الألفاظ، يعتمد على الصورة الهزلية المضحكة، كأن قصره أوكد لذبوعه وخطورته وثقل وقعه على المهجو. قيل للفرزدق: ما اختيارك للقصار؟ قال: لأني رأيتها أثبتت في الصدور وفي المحافل أجول. وقيل للحطيئة: ما بال قصارك أكثر من طولك؟ قال: لأنها في الأذان أوج وفي أفواه الناس أعلق» (حسين، ١٩٦٩: ١٢٦). ولعل من أهم الممثلين لهذا النوع من الهجاء، ابن الرومي؛ «فقد أعده مزاجه الحادُّ وقدرته البارة في لمح الدقائق والعيوب الجسمانية لضرب من الهجاء ما يمكن أن نسميه الهجاء الساخر، إذ كان يعبث بمهجوّيه عبثاً لا دعماً يُشبه عبث أصحاب الصور الكاريكاتيرية، فهو يقف عند نواحي الضعف ويكبرها ويظهرها في أوسع صورة حتى أثير الضحك والإشفاق على من يتناوله منهم» (ضيف، ١٩٦٠: ٢١٣-٢١٢).

٣. البوصيري و شعره

(راجع لترجمته: الكنتي، ١٩٧٤، ج ٣: ٣٦٢؛ الصفدي، ٢٠٠٠، ج ٣: ٨٩؛ مقدمة الديوان، ١٩٩٥: ٥). هو أبو عبدالله، شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد، وهو مغربي الأصل، حيث يعود نسبه إلى قبيلة صنهاجة المغربية، ولد في دلاص في أول شوال سنة ٦٠٨ هجرية ونشأ في بوصير وتلقى علومه الأولى فيها، ثم ارتحل إلى القاهرة وفيها بدأ رحلته العلمية حيث درس العلوم الدينية والتاريخ الإسلامي وبعض العلوم العربية كالأدب والنحو والصرف والعروض، كذلك أخذ التصوف عن أبي العباس المرسي. ومما نلاحظه في ديوانه أنه مطلع على كتب اليهود والنصارى وخصوصاً في معرض تعليقه على قصيدته اللامية التي سماها «المخرج والمردود على النصارى واليهود» (الديوان، ١٩٩٥: ١٤٦-١١٦). وهذه الثقافة استدعتها مواقف اليهود والنصارى من الإسلام وإنكارهم لنبوّة محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - فرأى أن يرد عليهم بطريقة جدلية بقصد إقناعهم بطلان ما ذهبوا إليه.

و رغم فقر البوصيري وكثرة عياله، فإنه لم يقبل وظيفة لا يتقنها ولا يستطيع القيام بواجباتها؛ حيث عرض عليه أن يكون محتسب القاهرة إلا أنه اعتذر عن هذه الوظيفة. وسنشير إلى بعض هذا في مقام بحثنا عن هجاء الحسبة والمحتسبين. وعلى صعيد الوظائف الحكومية فإن البوصيري لم يستطع الحصول على أكثر من وظيفة كاتب ديوان بلييس؛ ولكنه عاد إلى القاهرة أنشأ كتاباً لتحفيظ القرآن. وهو عانى كغيره من شعراء عصره من انصراف الأمراء والميسورين عن الشعروبخلافهم على الشعراء وهكذا كانت حياته حتى انتهت بموته سنة ٦٩٥ للهجرة.

«و مما يروى عنه أنه كان قصيراً نحيفاً مما دعا بعض الناس أن يسخروا منه وهو إزاء ذلك كان يضيق بهم ذرعاً ويظهر مقتته وكرهه لمن يسخر منه أو ينتقد شعره فيهجوه أو يسخر منه. وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن البوصيري كان ممقوتاً يمتته الناس حتى زوجته. أما الناس فكرهوه لأنه كان سليط اللسان ملحاً في السؤال شأن الصوفية في ذلك الزمان. على أن بعض الباحثين يشير إلى أن الذين مقتوا البوصيري كانوا من المستهدفين بنقده من ذوي المناصب الحكومية، و لو كانوا من عامة الناس لما كان ضرورة لذكرهم في مجالس الأمراء؛ والوزراء لا يهتمون لسماع الأحاديث عن العامة من الناس. أما عامة الناس فقد أحبوه وتقربوا منه وكان متى مشى في الشوارع أسرع إليه الناس يقبلون يده حتى الصغار منهم وكانت تنبعث من جسده رائحة طيبة» (أبو علي، موقع iugaza.edu.ps/nail/filas/2010).

أما شعره فالعاطفة الدينية بارزة فيه، خصوصاً في مدائحه النبوية ولاسيما البردة والهمزية فضلاً عن قصائده الأخرى؛ ونخص بالذكر قصيدة «المخرج والمردود» التي أشرنا إليها. وتمتاز تلك القصائد بقوة الأسلوب وحسن الصياغة وجمال الصورة كما تمتاز مدائحه بحسن اختياره للألفاظ مع تلاعبٍ واضحٍ على سبيل التورية في بعض الأحيان.

٤. بواعث الهجاء في شعر البوصيري

لا ينكر أثر جوانب حياة البوصيري المختلفة في شعره؛ فإنه كما أشرنا سابقاً درس الإنجيل والتوراة كما درس تاريخ ظهور المسيحية وما ألفه النصراني واليهود من كتب في شرح الديانتين والانتصار لهما. و قد مكنته ذلك من التصدي لمزاعم اليهود والنصارى وأباطيلهم؛ فكان هذا باعثاً قوياً على أن يهجو البوصيري خصومه هجواً دينياً. على أني أظن أنه لا يبعد أن يكون هذا الدرس والتصدي باعثاً على خلق مدائحه النبوية أيضاً و نحن نعلم أنه يهجو اليهود

والنصارى حتى في مدائحه النبوية وأحص بالذكر أهاجيه في الهمزية. و إذا التفتنا إلى حياته الشخصية، نلاحظ أنه عاش عيشة فقر وضنك، نراه و هو يعاني شظف العيش وقلة الرزق وعدم القدرة على تحمل تبعات أسرة كبيرة وامرأة ولودٍ . و هو يتحدث عن كل هذا في شعره . ومن جانب آخر فإنه لم يستطع الحصول على وظيفة مرموقة ولم يقبل وظيفة لا يتقنها. و لا يخفى علينا بعد الدرس و الفحص في ديوانه أنه كان يسأل ممدوحيه ولكن يبدو أنه يئس منهم، فلا عجب أن يكون هذا وما أشبهه باعثاً أو قُل من بواعث خلق الهجاء بأنواعه عنده.

و نحن في هذا المجال نشير إلى طرف من أهاجيه الموجودة في ديوانه المتأثرة بهذه البواعث المختلفة ولا ننسى أن البوصيري شاعر المديح النبوي، فأثرت هذه المدائح الرائعة الجميلة الصادقة الجارية على القلب قبل اللسان في أساليب الهجاء عنده.

١-٤ . الهجاء الديني و العقائدي في شعره

و المراد من الهجاء الديني هذا الذي تصدى به البوصيري لأعداء الإسلام من اليهود والنصارى. و لا نجد هذا الهجاء في «المخرج و المردود» فقط بل في سائر قصائده وحتى في مدائحه النبوية أيضاً.

و البوصيري في هجوه أهل الكتاب يقفأحياناً موقفاً أخلاقياً و يثلبهم بعدم مراعاة القيم الإنسانية؛ فشيمتهم الحسد و الظلم و عدم مراعاة حق الأخوة؛ و في هذا المجال يستدعي قصة هابيلوقابيل و يتحدث عن كيد أبناء يعقوب. يقول في همزيته:

لو جحدنا جحودكم لا ستؤينا	أو للحق بالضلال استواء
ما لكم إخوة الكتاب أناساً	كيس مريع للحق منكم إخوان
يحد الأوتل الآخر ومازا	ل كذا المحذون والقدماء
علمتم بظلم قابيل هابيل	ومظلوم الإخوة الأتقياء
و سمعتم بكيد أبناء يعقوب	ب أخاهم وكلمهم ضلحاء
حين القوه في غيابة جح	ورموه بالإفك و هو برء

(البوصيري، ١٩٩٥ : ٢٠)

والبوصيري يستهلم القرآن الكريم في وصف أهل الكتاب بالضلال ونرى أن هذا الوصف يتكرر في مواضع عديدة من ديوانه؛ يقول:

لم تقل فيك مقال النصارى	إذ أضلوا في المسيح الصوابا
-------------------------	----------------------------

(المصدر نفسه : ٣٤)

و يقول:

ما بألّ منّ غَضَبِ الإلهِ عليهم
وَأَخُو الضَّلالةِ قالَ عيسى رُبّه
حادُوا عَن الحقِّ المبينِ و نَكَبُوا
و نُبِيّه فَأَخُو الضَّلالةِ مَمْدَبْتُ
(المصدر نفسه : ٦٤)

أما قصيدة المخرج والمردود، فهي قصيدة طويلة يبدو أنها كانت كتاباً مستقلاً في الرد على اليهود والنصارى، وكان البوصيري يعلق نثراً على كل ما يورده بالنسبة لعقائد اليهود والنصارى. ويتضح مما جاء في تعليقاته أن الشاعر قد درس كتب أهل الكتاب (باشا، ١٩٩٩: ١٨٠). وهذه القصيدة على جانب كبير من الأهمية وربما كانت العامل الكامن وراء معاداة النصارى واليهود له، حتى إنه لقي عداوة كثيرة من الذين كان بيدهم الأمر والنهي (المصدر نفسه : ١٨١).

فالبوصيري في هذه القصيدة اتهم النصارى واليهود بالتحريف والتبديل بما أنزل الله عليهم وألح على هذا المعنى؛ فهم ضالون تائهون خالفوا المنقول والمعقول:

ضَلَّ النّصارى و اليهودُ فلا تُكُنْ
و المَدْعُوا التثليثِ قومٌ سَمَّعُوا
يُحيمُ على سُبلِ الهدى مملُوكُوا
ما خالَفَ المنقولَ و المعقولَ
(البوصيري، ١٩٩٥: ١٢١)

و البوصيري يرى النصارى أقل العالمين عقولاً بما أنهم ادّعوا أن الله حلّ في المسيح، فمصدقوا الرسول بل أكثروا في القول بالإفك والبهتان:

جاءَ المسيحُ مِنَ الإلهِ رُسولاً
قَوْمٌ رَأَوْا بَشراً كَرِيماً فَادَّعَوْا
قَأبى أَقلُّ العالمينَ مَحْقولاً
مِنْ جَهلِهِمُ اللهُ فِيهِ مَحْلولاً
بِالإفكِ و البهتانِ فِيهِ التَّيْبِلا
و عَصَابَةٌ ما صَدَّقْتُهُ و أَكْثَرْتُ
(المصدر نفسه : ١١٦)

ثم يسخر البوصيري منهم، فكأن عيسى لم يرسل إليهم إلا ليكذبوا التوراة والإنجيل:

فَكَأَنَّمَا جاءَ المسيحُ إليهِمُ
ليَكْذِبُوا التوراةَ و الإنجيلَ
(المصدر نفسه : ١١٦)

و يسعى البوصيري في أن يفحم الخصم بالمحاجة العقلية الممزوجة بنوع من التهكم والسخرية؛ فكيف يمكن أن يكون الإله محتاجاً فيأكل ويشرب وينام ويحس بالألم! وإذا مات الإله . بزعمهم . فمن الذي يتكفل أموره بعده!

أَسْمِعْتُمْ أَنَّ الإلهَ لِحاجةٍ
يَتَنَاوَلُ المشروبَ و المأكولَ

وَيَنَامُ مِنْ تَعَبٍ وَ يَلْعَوْرَتُهُ
وَيَمْسُهُ الْأُمُّ الَّذِي لَمْ يَسْتَطِعْ
يَا كَيْشَعْرِي حِينَ مَاتَ بِرِغْمِهِمْ
وَيُرْوَمُ مِنْ خَرِّ الْحَجِيرِ مَقْبِيلًا
صَرَفًا لَهُ عَنْهُ وَ لَا تُحْوِيلًا
مَنْ كَانَ بِالْتَّادِيرِ عَنْهُ كَفِيلًا
(المصدر نفسه: ١١٩)

و يتحدث البوصيري في هذه القصيدة عن تحريف التوراة والإنجيل بالتفصيل كما أنه ينقل شواهد كثيرة من كتب أهل الكتاب. «فالبوصيري واحد من الشعراء المسلمين الذين خاضوا في الصراع الديني، فقد أسرف في مهاجمة النصارى واليهود واتهامهم بالإفك والبهتان وسقته معتقداتهم التي حرفوها وأنكر عليهم عدم اعترافهم بالنبي محمد . صلى الله عليه وآله وسلم . ورسالته و قد بشرت به التوراة والإنجيل إلى غير ذلك مما يتصل بأصول العقيدتين اليهودية والمسيحية منزهاً موسى و عيسى . عليهما السلام . عمّا يدعيه أتباعهما» (يوسف، ٢٠٠٣: ٤٨٢).

و للبوصيري قصيدة أخرى في مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم سماها (ذخر المعاد في وزن بانة سعاد) (البوصيري، ١٩٩٥، ص ١٥١ وما بعدها)، يرمي الشاعر فيها النصارى واليهود و هم أهل الكتاب بالتنكر للإسلام والكفر والجهل والتجهيل والحدود والظلم، و هو في أسلوب ساخر يشبه النصارى بقايل واليهود بالغرب الذي قلده قايل في الدفن، فهم استفادوا في جحودهم اليهود، فإن ظلمونا بإنكار رسالة نبينا فاليهود ظلموهم من قبل و كأن الله قدر العدل في القصاص. فالنصارى عاملون بأن محمداً رسولاً أرسله الله تعالى إلى الناس كافةً ولكن الحسد صدّهم، فهم لا يؤمنون به رغم أنهم يعرفونه معرفة الأبناء وهو الذي كانوا يستفتحون بهويستنصرون منه:

إِنْ أَنْكَرْتَهُ النَّصَارَى وَ الْيَهُودُ عَلَيَّ
فَقَدْ تَكَرَّرَ مِنْهُمْ فِي جُحُودِهِمْ
مُخْلِ لِلنَّصَارَى الْأُلَى سَاءَتْ مَقَالَتُهُمْ
مِنْ الْيَهُودِ اسْتَفَادْتُمْ ذَا الْجُحُودِ كَمَا
فَإِنَّ عَيْنَكُمْ تَوْرَاتُهُمْ صَادَقَتْ
ظَلَمْتُمُونَا فَأَضْحَوْا ظَالِمِينَ كَلَّمْتُمْ
مِنْكُمْ أَنَا وَ لَكُمْ مِنْ بَعْضِكُمْ شُعْلٌ
لَقَدْ عَلِمْتُمْ وَ لَنْ يَصْدُقْكُمْ حَسَدٌ
أَمَا عَرَفْتُمْ نَبِيَّ اللَّهِ مَعْرُوفَةَ الْإِ
هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تَسْتَفْتِحُونَ بِهِ
فَلَا تَرْجُوا بَجْزِيلِ الْأَجْرِ مِنْ عَمَلٍ
مَا بَيَّنَّتْ مِنْهُ تَوْرَاتُهُ وَ إِنْجِيلُ
لِلْكَافِرِ كَقَرِّ وَ لِلتَّجْهِيلِ تَجْهِيلُ
كَمَا لَهَا غَيْرُ مَحْضِ الْجَهْلِ تَعْلِيلُ
مِنْ الْغُرَابِ اسْتِفَادَ الدُّفْنَ قَابِيلُ
وَ لَمْ تَصْدُقْ كَلِّمْ مِنْهُمْ أَنَا جِيلُ
وَ ذَاكَ مِثْلَ قِصَاصٍ فِيهِ تَعْدِيلُ
وَ النَّاسُ بِالنَّاسِ فِي الدُّنْيَا تَمَشَاغِيلُ
أَنَا مِمَّا جَاءَنَا قَوْمٌ مَقَابِيلُ
أَبْنَاءَ لِكُنْكُمْ قَوْمٌ مَنَاكِيلُ
لَوْلَا اهْتَدَى مِنْكُمْ لِرِشَادِضَلِيلُ
إِنَّ الرَّجَاءَ مِنْ الْكُفَّارِ مَخْدُولُ
(البوصيري، ١٩٩٥: ١٥٦)

و لا يخفى ما اقتبس البوصيري من القرآن الكريم في هذه الأبيات في مقام هجائه الديني، فإنه أشار إلى ما جاء في القرآن من أن الإنجيل مصدق لما بين يديه: (وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) (المائدة/ ٤٦) ، وأشار إلى ما جاء فيه من أنهم يعرفون النبي كما يعرفون أبناءهم: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ) (البقرة/ ١٤٦) ، (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) (الأنعام/ ٢٠) وأشار إلى ما جاء فيه من أن اليهود قد كانوا . من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب . يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم؛ يقولون إنه سيبعث نبي في آخر الزمان تقتلكم معه قتل عاد وإرم: (وَ لَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) (البقرة/ ٨٩).

و الشاعر يستدعي قصة قابيل وهايل حينما بعث الله غرابين فاقتلتا حتى قتل أحدهما صاحبه ثم حفر الأرض فدفنه: (فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) (المائدة/ ٣١) ، و هذا من خصائص الهجاء الديني عند البوصيري، فإنه كثيراً ما يستدعي القصص القرآنية ثم يخلق من مضمون قصة بعينها هجاءً ساخراً يستطيع من خلاله أن يُفحم الخصم ويهكمه ويهته.

ولا ينحصر الهجاء الديني عند الشاعر في قدح اليهود والنصارى فقط؛ بل إنه يهجو المشركين والمنافقين أيضاً؛ ففي الحمزية يهجو زوجة أبي لب . ويدعوها بذلك اللقب الذي دعاها القرآن به، حمالة الخطبو هذا هجاء لاذع في نفسه . فإنها لما سمعت ما نزل في زوجها وفيها من القرآن في سورة المسد، أتت رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم و في يدها فهر من حجارة، فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت يا أبا بكر إن صاحبك قد بلغني أنه يهجوني، و الله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، والله إني لشاعرة: مذمماً عصينا وأمره أينا ودينه قلينا، ثم انصرفت. (الالوسي،

١٩٨٥، ج ٣٠: ٢٦٤) يقول البوصيري:

تَرَوُ جَاءَتْ كَأَنَّهَا التُّورِقَاءُ
لَمِي مِنْ أَحْمَدٍ يُقَالُ الْهَيْجَاءُ

وَ أَعَدَّتْ حَمَالَةَ الْخَطْبِ الْفَهْ
يَوْمَ جَاءَتْ غَضْبَى تَقُولُ أَفِي مِنْهُ

وَتَوَلَّوْا مَا رَأَيْتُمْ مِنْ

أَيِّن تَرَى الشَّمْسَ مُقَلَّةً عَمِيَاءَ

(البوصيري، ١٩٩٥: ١٥)

و بعد إشراق أنوار النبوة لم ير الكفار إلا ظلاً وسراباً، و ليس الكفار إلا ذوي أذواق مريضة تجد الشهد مرأً، فدأبهم العناد والتغابي، بل إنهم قوم عُمي و الأعمى لا يرى ما يحس بالصبر، فكيف يرى السرّ والرسول سرّ الله في خلقه:

أَشْرَقَتْ أَنْوَارُهُ قُرْأَيْنَا الرَّأ
و رَأَى الْكُفَّارَ ظِلًّا فَضَلُّوا
و إِذَا لَمْ يَصِحَّ بِالْعِلْمِ دَوَّقْ
كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ مِنْهُمْ عَنِيداً
و إِذَا جِئْتَ بِآيَاتِ صِدْقِي
أَنْتَ سِرُّ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ وَ السِّ

سَ رَأْسًا وَ الدُّنْيَا دُنَابَا
و يَجْهَمُ ظَنُّوا الشَّرَابَ الشَّرَابَا
مُوجِدَ الشَّهَادَةِ مِنَ الْجَهْلِ ضَابَا
شُكْلَمَا أَنْبَصَرَ حَقًّا تَغَابَا
لَمْ تَزِدْهُمْ بِكَ إِلَّا ارْتِيَابَا
رُ عَلَى الْعَمِيِّ أَشَدُّ اخْتِجَابَا

(المصدر نفسه: ٣٤)

و في الآيات إشارة إلى ما جاء في القرآن الكريم من أن المؤمنين يعملون بما في القرآن من الفرائض ويحلون حلاله ويحرمون حرامه ولا يزيد هذا الذي نزل على رسوله الكافرين إلا خساراً، لأنهم كلما نزل فيه أمرٌ من الله بشيء أو نهي عن شيء كفروا به فلم يأتمروا لأمره ولم ينتهوا عما نهاهم عنه، فزادهم ذلك خساراً إلى ما كانوا فيه قبل ذلك من الخسار: (وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) (الإسراء: ٨٢).

والشاعر في قصيدته (ذخر المعاد) يهجو المشركين الذين طاردوا النبي الكريم (ص) و لكنهم بلغوا أسفل الدرجات من الضلال والمهانة والذلة حتى أن الله - تبارك وتعالى - أنجى نبيه منهم بنسج من العنكبوت وأعماهم، فهم ينظرون ولا يبصرون:

و جَلَّلَ الْغَارَ نَسْجَ الْعَنْكَبُوتِ عَلَى
عِبَابَةٍ ضَلَّ كَيْدَ الْمُشْرِكِينَ بِهَا
إِذْ يَنْظُرُونَ وَ هُمْ لَا يُبْصِرُونَ
إِنَّ يَقْطَعِ اللَّهُ عَنْهُ أُمَّةً سَفِهَتْ

وَهِنْ قِيَا حَبْدًا نَسَجَ وَ تَجَلَّلِ
و مَا مَكَابِيَهُمْ إِلَّا الْأَضَالِيلِ
كَأَنَّ أَبْصَارَهُمْ مِنْ زَيْغِهَا حَوَّلَ
نُفُوسُهَا قَلْبَهَا بِالْكَفْرِ تَعَلَّلِ

(البوصيري، ١٩٩٥: ١٥٥)

٢-٤. الهجاء الاجتماعي في شعره

إن البوصيري و إن كان معروفاً بمدائح النبوية، ولكنه يُعدُّ من كبار الشعراء الذين خلاصهم انتقاد المجتمع بمختلف طبقاته، لا سيما طبقة الموظفين، فقد صبَّ جام غضبه عليهم ورماهم بأبشع

النعوت ودعا إلى قطع دابرهم ولم يدع مناسبة تمر إلا تناولهم وبين مساوئهم وكشف عيوبهم وهجاءهم الهجاء اللاذع (يوسف، ٢٠٠٣: ٤٩٠). فهو يتناول الآفات التي كانت منتشرة بين موظفي الدولة آنذاك كالخيانة والسرقة والارتشاء والخلافات الطائفية وغيرها.

و هذا القسم من شعره يتصف بطابع الرقة وخفة الروح والميل إلى الدعابة (ينظر: حسين، ٢٠١١: ٣٣١). فها هو في معرض مدحه عزالدين أيبك (ت ٦٥٥هـ) يذكره بالموظفين ويلفت نظره إلى ما هو خفي منه وغير منظور وينصحه بتطهير الأرض منهم (يوسف، ٢٠٠٣: ٤٩٠) فالتفكر بيدي من مفاسدهم ما لا يبيده النظر بالعين. فهم في ظاهر الأمر أهل الخير والصلاح والعمارة وفي الحقيقة يفسدون ويخربون، فالخباثة فيهم مغلظة حتى لو غسلتهم بالبحر ما طهروا. يقول:

إذا تفكرت في المستخدمين بدا	منهم لعينيك ما لم يبيده النظر
ظننهم عمروا الدنيا يبدلهم	و إنما خربوا الدنيا و ما عمروا
فطهر الأرض منهم إنهم تحب	لو يغسلونهم بالبحر ما طهروا
نيران شر كفانا الله شرهم	لا يرحمون و لا ييقون إن ظفروا

(البوصيري، ١٩٥٥: ٨٤)

ثم يلحقهم بالحمقى الذين لا دواء لدائهم؛ فإنهم معظمون عند أنفسهم محتقرون عند الناس، لا يزورون السلطان إلا حين يفتقرون، فهم عالون طاغون جاحدون للنعماء في السراء، أما في الضراء فينحدرون، ورفع الدهر إياهم ليس إلا كرفع البقر أذناهما لقضاء الحاجة!:

و لا تثق بوفاء من أحمى محقى	فالحمقى دائه عيائه مبرؤه عسرى
من كل من قاربه في نفسه أبدا	معظم و هو عند الناس محتقر
يصد عنك إذا استغنى بجانيه	و لا يزورك إلا حين يفتقر
كأنه الدلو يعلمو حينتملؤه	ماء و مفرغ ما فيه قينحائر
و الدهر يرفع أطرافاً كما رفعت	أذناهما لقضاء الحاجة البقر

(المصدر نفسه: ٨٤)

وفي مطولته هذه و قد كادت أن تنيف على مائة وستين بيتاً، لم يُبق البوصيري ولم يذر، فقد سبق له أن أيد عزالدين أيبك وبارك فعلته في أناس ادعى أنهم مجموعة من رعاع القوم عاثت في الأرض فساداً (يوسف، ٢٠٠٣: ٤٩١)، يقول البوصيري:

عصت عليه أناس لا تحلاق لهم	الشؤم شيمتهم و اللؤم و الدبر
تلثموا ثم قالوا إننا عرت	فقلك لا عرت أنتم و لا حضر

و لا مَحْهُودٌ لَكُمْ تُرعى وَ لا ذَمٌّ
وَ لا بُيُوتَكُمْ تُشعَرُ وَ لا وَبُر

(البوصيري، ١٩٩٥: ٨٢)

و رغم أن الدافع الشخصي هو أهم ما يميز الهجاء عن النقد الاجتماعي وأن البوصيري في تعرضه لموظفي الدولة كان يصدر عن دافع شخصي أحياناً. كما نشير إليه في القسم الآتي. إلا أن توفر ذلك الدافع الشخصي لا ينفي كون شعره نقداً اجتماعياً، فمعاناة البوصيري من موظفي الدولة هي دليل على معاناة الرعية، فهو لا يتعرض لزيدٍ أو عمرو، بل يتعرض لكل رجل من رجال الدولة خان الأمانة في أثناء قيامه بعمل رسمي كُلف به وبالتالي فقد ذابت المصلحة الشخصية في المصلحة العامة (أبوعلي، iugaza.edu.ps/nail/filas/2010). فلا يجد البوصيري بينهم رجلاً أميناً وهو يدعي أن عنده اليقين فهو عاشرهم وجرهم فوجدهم كلهم لصوصاً يعدل سارقٌ منهم مائة سارق! يقول:

تَكَلِّتْ طَوَائِفَ الْمَسْتَحَامِينَا
فَلَمَّ أَرَّ فِيهِمْ رَجُلًا أَمِينَا
فَجَدَّ أُنْحَارُهُمْ مِنِّي شِفَاهَا
وَ أَنْظِرْنِي لِأَخْبَرِكِ التَّيِينَا
فَقَدَّ عَاشَرْتُهُمْ وَ كَثِبْتُ فِيهِمْ
مَعَ التَّحْرِبِ مِنْ عُمْرِ سِينِينَا
خَوْتُ بَلْبِيشٍ طَائِفَةٌ لُصُوصًا
عَدَلْتُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ مِئِينَا

(البوصيري، ١٩٩٥: ١٨٩)

فلا يُبقي رجلاً واحداً منهم إلا و هو يعلن الحرب عليه ويتهمه بالخيانة والسرقة، فهو عاشرهم وجرهم واطلع على ألوان خيانتهم. هذا من جانب، ومن جانب آخر فشاعرنا يحس بمآسي شعبه ومصائبهم، فهو ينقد بنفسي طويل وعاطفة صادقة ما رأى من هذه الطائفة المجرمة. فهم قوم يفعلون كل ما نهى الشرع عنه، يلبسون الحرير ويشربون الخمر ويباشرون الغلمان المرد والشاعر من طريق عرض صورة كاريكاتيرية مضحكة يشير إلى أن هذه العادات الذميمة والفعال القبيحة صارت شيمتهم الثابتة المستقرة فيهم بما أنهم يفعلونها من قديم الأزمان حتى أن الغلمان قد طعنوا في السن و هم ما يزالون يأتون القبائح من دون استحياء!:

وَ كَوَلَا ذَاكَ مَا كَبِسُوا حَرِيرًا
وَ لا تَرَبُّوا مِنَ الْمِرْدَانِ قَوْمًا
وَ لا تَسْرُبُوا خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا
وَ كَأَعْصَانٍ يُبْمَنُ وَ يَنْحَنِينَا
وَ قَدَّ طَلَعْنَا لِعَضْرِيهِمْ دُقُونًا
وَ لَكِنَّ بَعْدَ مَا نَتَقْنَا دُقُونًا!

(المصدر نفسه: ٨٩)

و الدافع الشخصي والهجاء الاجتماعي عند الشاعر يظهر أيما ظهور حينما يحرض أحد أمراء المماليك عليهم في رأيته وينهاه عن أن يُدني أحداً منهم، فجمال ظاهرهم ستر فساد باطنهم. فيطلب من الممدوح أن ينتقم منهم فكلهم أهل الخيانة والغدر، فهم الذين منعهو حظه وظلموه. يقول:

فلا تمدن منيهم واحداً منك ساعة
و كبري فؤادي بانتقامك منيهمو
فقد كاد قلبي منيهمو يتقطر
منعت بحم حظي شهوراً و لم أصلاً إلى
و كبري فؤادي بانتقامك منيهمو
منعت بحم حظي شهوراً و لم أصلاً إلى
أما فيهم لا بارك الله فيهم
و كبري فؤادي بانتقامك منيهمو
منعت بحم حظي شهوراً و لم أصلاً إلى
أما فيهم لا بارك الله فيهم

(المصدر نفسه : ١٠٤)

والبوصيري في نقده للموظفين لا يستثني أي طائفة منهم، فهو في سبيل المصلحة العامة لا يميز بين فقيه استغل منصبه ونصراني أو يهودي، بل قد يكون الفقيه أكثر خطراً كما يرى البوصيري لأنها قدر من غيره على جعل العدل ظلاماً و الباطل حقاً (أبو علي، iugaza.edu.ps/nail/filas/2010)، فالقاضي يخون في الأمانات ويستغل كل فرصة لأن يمكر بالناس و هم يظنون أنه أمين في أموالهم وأعراضهم والفقيه لا يخاف الله ورسوله ويحرف الكلم عن مواضعه فيحرم الحلال ويحل الحرام، يظلم الناس ويقول عدلث و يجعل الباطل حقاً والحق باطلاً وكل حزب بما لديهم فرحون، فالمسلم يتأول في النصوص ولا يرى حقاً لغير المسلم والنصراني يدعي أنه أحق بالتصرف من غيره في البلاد واليهودي يفضل اليهود على من في الأرض جميعاً فهم أهل السبب وكل ما في الأرض حل لهم لا حق فيه لأحد سواهم! يقول البوصيري:

تحلت القضاء فحان كل
و كنتم جعل الفقيه العدل ظلاماً
و ما أخشى على أموال مصر
يقول المسلمون لنا حقوق
و قال القبط إنهم بمصر
و حلت اليهود يفضلت
فلا تقبل من الثواب محذراً
أمانته و سموه الأمانة
وصير باطلاً حقاً مينا
سوى من معشر يتأولونا
بما و كبري فؤادي بانتقامك منيهمو
منعت بحم حظي شهوراً و لم أصلاً إلى
أما فيهم لا بارك الله فيهم

(البوصيري، ١٩٩٥ : ١٩١)

و يهجو البوصيري كتاب الدواوين، فهم قوم لا يوجد عندهم كرامة ولا أمانة ولا سلامة، فهم قد غيروا قوانين الشرع وصار كل حكم عالٍ مقدس سافلاً عندهم لا يعاب به بل يهان. و البوصيري يستلهم من الآية الشريفة: (كراماً كاتيين) (الانفطار، ١١). ويقول إنهم كاتيون ولكن ليسوا بالكرام! وكأنه يريد أن يقول: أيها القوم الفسقاء ألا تخافون من الله القاهر الذي له كرام

كاتبون يكتبون كل عمل بني آدم أن يحاسبكم على سوء كتابتكم! إنهم قوم لئام لا يأمن منهم أحد على ماله، فليس الأمر كما كان عند الأجيال الماضية، فكتاب زماننا صاروا خدام جمع المال وأفعالهم مبنية على الظن لا التحقيق، يزنون إلى ذرى المناصب ولا يخافون حتى الخروج من الدين، فمَثَلهم في تحريم المناصب كمثل الذباب كلما دُبَّ آب !

أَنْظُرُ جِحْيَكِ فِي أَمْرِ الدَّوَابِّينِ قَالِكُلِّ قَدْ عَجَّرُوا وَضَعِ التَّوَانِينِ
لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ عَلَيَّ مَا كُنْتُ تَعَهَّدُهُ إِلَّا تَعَبَّرَ مِنْ عَالِي إِلَى دُونِ
الكَاتِبُونَ وَكَيْسُوا بِالكَرَامِ كَمَا مِنْهُمْ عَلَى الْمَالِ إِنْسَانٌ بِمَأْمُونِ
وَ الكُلُّ جَمْعًا يَبْدُلُ الْمَالِ قَدْ خَدَمُوا وَ مَا سَمِعْنَا مَجْدًا غَيْرَ ذَا الْحَيْنِ
قَتُّهُمْ عَلَى الظَّنِّ لَا التَّحْقِيقِ بَدَلُهُمْ وَ مَا تَحَقَّقُ أَمْرٌ مِثْلَ مَظْنُونِ
تَأَلَوْا مَنَاصِبَ فِي الدُّنْيَا وَ أَخْرَجَهُمْ مَحَبُّ الْمَنَاصِبِ فِي الدُّنْيَا عَلَى التَّيْنِ
قَدْ طَالَ مَا طُرِدُوا عَنْهَا وَ مَا انطَرَدُوا إِلَّا وَ قَوْمٌ عَلَيْهَا كَالدَّيَابِينِ
(المصدر نفسه: ١٨٦)

فإنمَّشاعره في هذه القصيدة تنور لمعانة الرعية من الظلم أينما وقع، فإنه يتحدث عما وقع على أهل أسوان من الظلم ومصادرة الأموال ويصور ألوان هذا الظلم والعدوان وهذه المعاناة والمصائب و يرفعها لسلطان مصر (ينظر: المصدر نفسه: ١٨٩-١٨٦) ويحرض على كشف البلاء عن أهل أسوان و يرى أن جهاد عامل أسوان ومستخدميه يقدم على جهاد التتار والصليبيين بل إن كشف الغمَّة عن الرعية هي الطريق الأمثل لكسب مرضاة الله . عزوجل .:

وَ تَحَلَّى غَزْوَهُ هَلَاكًا وَ التَّرْنِسَ مَعًا وَ اتَّخَذَ بُغْرَسَانِكَ العُرَّ المِيَامِينِ
وَ اعْتَرَّ عَامِلِ اسْوَانَ تَنَالُ بِهِ جَنَّاتٍ عَدْنٍ بِإِحْسَانٍ وَ تَمَكِّنِ
(المصدر نفسه: ١٨٨)

و مهما يكن من أمر فإن هجاء البوصيري الاجتماعي بسيط في روحه وأسلوبه ويتسم بالخفة والظرف كما أنه يتصف بطابع ديني أيضاً ، فإنه . على أية حال . شاعر المديح النبوي، وكثيراً ما يصنع من التعابير الساخرة الساذجة صوراً كاريكاتيريةً ناقدة لا يبدو عليها تكلف النظم والصنعة، فتجري الألفاظ والعبارات على كل لسان، فهذه الأهاجي الاجتماعية تصور جانباً من حياة مجتمع الشاعر وأحوال الموظفين في عصر المماليك ، كذلك تكشف عن مدى استغلال كتاب الأقباط واليهود لوظائفهم في الحسابات والشؤون المالية للسرقة والاختلاس (حسين، ٢٠١١: ٢٣٢).

٣-٤ . الهجاء الفردي في شعره

و نعني بالهجاء الفرديما تعرض فيه الشاعر لشخص بعينه وهذا النوع من الهجاء وإن كان أقل من سائر الأنواع في شعر البوصيري إلا أننا نواجه أعلاماً وأسماءً مختلفة تعرض لهم البوصيري بالقدح والهجو؛ حتى نرى أنه يصرح بأسماء متعددة في هجو المستخدمين يقول:

حوتٌ بلبيسٍ طائفةً لُصوصاً عدلتُ بواحدةٍ منهمُ مئينا
فُرَجِي وَ الصَّنْفِي وَ صَاجِيهِ أبا يَقْطِينَ وَ الشُّوعَ السَّمِينَا
(البوصيري، ١٩٩٥: ١٨٩)

فالفرجي والصنفي وأبو يقطين والنشوع أسماء أعلام.

ومن الهجاء الشخصي عند البوصيري، ما تعرض فيه الشاعر للفقهاء بقاء الدين بن المسردى؛ فقد نظم الشاعر على لسان مسجد الشيخ عبدالظاهر بالقاهرة حينما بلغه أن السلطان الأيوبي الملك الصالح نجم الدين أيوب منح طلبية العلم في هذا المسجد أربعة آلاف دينار، لكن المسؤول عن توزيع هذا المبلغ و هو الفقيه بقاء الدين بن المسردى قد فوّض والده الشهاب ، فلم ينل الشاعر منه نصيبه. (ينظر: باشا، ١٩٩٩: ١٧٠-١٦٩) يقول البوصيري:

كَيْتَ شِعْرِي مَا مُتَقَضَى حِرْمَانِي نُؤُونَ نَعْرِي وَ الْآلِفَ لِلرَّحْمَنِ
أَتْرَانِي لَا أَسْتَحَقُّ لِكُونِي جَامِعاً شَمِلَ قَارِئِي الْقُرْآنِ

...

أَنَا لَا أَنْسِبُ الْبِهَاءَ عَلَى دَا لَيْكَ إِلَّا لِقَلَّةِ الْإِيمَانِ
مُهَوِّ وَ لِي أَهْلُ الْخِيَانَةِ فِيهَا وَ تَوَلَّى الْجَوَادِ كَالْحَوَانِ
عَلَّمَا جَاءَتْ الدَّنَانِيرُ قَضَّ عَلَيْهَا الْبِهَاءَ كَالشَّيْطَانِ
مَدَّ فِيهَا يَدَ الْخِيَانَةِ قَامَةً مَدَّ إِلَيْهِ بِاللَّيْمِ كُلَّ لِسَانِ
(البوصيري، ١٩٩٥: ١٨٤ و ١٨٥)

فالبوصيري في هذا الهجاء لا يتعرض إلا للمثالب الإنسانية الأخلاقية والدينية، فيرمي مهجوه بقلّة الإيمان والخيانة ويشبّهه بالشيطان وفي نهاية المطاف يشوب الهجاء بتقليل من الفكاهة والسخرية؛ فماذا يفعل المساكين لا سمح الله - إن وُلِّي البهَاءُ الفقيه أمر الطعام في شهر رمضان!!

آه واضيعة المساكين إن وُلِّي أمر الطعام في رمضان

(المصدر نفسه: ١٨٥)

و عرض على البوصيري أن يكون محتسب القاهرة، فاعتذر عن قبول الوظيفة وشرح لنا أسباب امتناعه في قصيدة طويلة مطلعها:

لا تظلموني و تظلموا الحسب
فليس بيني و بينها نسب
عجزي في البيع و الشراء كرت
و كس في الحالتين لي درته
(المصدر نفسه: ٥١)

و قد عُِّل سبب ذلك و ذُكر أن شخصاً يسمى (الفخر الفيشي) كان ينافسه في الحصول على هذه الوظيفة، فرأى البوصيري أن يتقي شر هذا المنافس وأن يتعد عن الحسبة ومتاعبها وقنع بما يكسبه من كتابه الألواح ونظم الشعر (باشا، ١٩٩٩: ١٧١-١٧٠)؛ فعلى سبيل التعريض يتحدث عن أفعال هذا المحتسب الشنيعة، فالشاعر لا يريد أن يكون محتسباً يوجع الناس ويسبهم وأن يأمر الناس بالصلاح وهو لا يصلح نفسه، ثم كأنما ينقلنا الشاعر إلى معرض صور مضحكة كاريكاتيرية من هذا المحتسب الذي أرخى العنان لنفسه فتفعل ما تشاء من دون ما استحياء. فالبوصيري يصور المحتسب يتردد في الأسواق بهذه الهيئة الساخرة التي لو أردنا أن نسهب فيه لطلال المقال؛ يقول البوصيري:

تاللهلا يرضى فضلي و لا أدبي
و لا طباعي في هذه السببه
أجلس و الناس مهروعون إلى
فعلني في الشوق محسبة محسبه
أوجع زيدا ضرباً و أشبعه
تتبا كاتي مرقص الدببه
(البوصيري، ١٩٩٥: ٥٣-٥١)

و في بعض الأحيان يصدر هذا الهجاء الشخصي الساخر من خلفية دينية، كما نرى في هجوه بعض كتّاب النصارى في بليس حينما أراد أن يكشف أخطاءه الحسابية، فيشبهه البوصيري قلم هذا الكاتب بالظفر والنايب والمخلب، فلا بد أن يكون صاحبه حيواناً مفترساً يريد أن يفترس الشاعر و هو في نفس الوقت يتلون في أنوابه ويغالط البوصيري ويريد أن يغير الواقع فيلغي الموجب و يوجب الملغى! و في الواقع إنه لا يعرف الحساب و ههنا يستغل البوصيري تلك الخلفية الدينية ليكون الوقع أشدّ والهجو أذع، نعم لا عجب من الكاتب النصراني أن يكون جاهلاً بالحساب، فالذي يزعم أن الله ثالث ثلاثة! ويثبت الأقانيم الثلاثة! حدير بأن لا يعرف الحساب، يقول:

فلا بورك المستخدمون عصابة
فكم ظالم منهم علمي تعصبا
إذا ما برى أقلامه خلت أنه
يسئ أنه ظفراً و ناباً و مخلبا
مغالطني بعض النصارى جهالة
إذا أوحب الملغى و ألقى للملجبا

و ما كانَ ممنَ عدَّ الثلاثةَ واحداً
بأعلمَ مِنِّي بالحسابِ و أكتبا
(المصدر نفسه : ٤٩)

فهل يمكن لمن يقول إن الله ثالث ثلاثة أن يكون أعلم من صاحبنا بالحساب!!
و بجنب ذلك يقدر عدول المسلمين!! في القصيدة التي نظمها في مباشري الشرقية (ينظر:
الصفدي، ٢٠٠٠، ج٣: ٨٩؛ الكتي، ١٩٧٤، ج٣: ٣٦٢)، و إذا كان حال عدول المسلمين على ما
قاله البوصيري هذا، فلا ملام على فساق النصارى:

و كيف يلامُ فُشائِقُ النَّصارى
إذا حانثَ محذولَ للمسلمينا
و حُجِّلَ النَّاسُ حُجُوتًا و لكن
أناشٍ مِنهُم لا يَسْتُرُونَا
(البوصيري، ١٩٩٥: ١٨٩)

وقد يغلب روح الدعابة وخفة الروح في كثير من أهاجيه الشخصية، فعلى سبيل المثال يعرض
البوصيري بابن عمران ناظر الشرقية في زمانه و قد سبق له أن فصله من وظيفته، فالناس يرونه
شر متاع في السر والعلانية فلا خير لهم في ظاهره ولا في باطنه. ثم يخاطب الشاعر ممدوحه
ويقول: إن قربي منكم حسن قرب ذكرى ابن عمران لأن مثلكم بالنسبة إليه كمثل المسك
بالنسبة إلى فارتة، فهو وعاء فارغ لا خير فيه ولا حسن! على أنه لا يباريني في مضمار الأدب،
فمدحه بالنسبة إلى مدحي قطرة من سحاب وهجوه شرارة مقتبسة من زنادي! ثم يقول على
سبيل السخرية أن لا فضل لابن عمران عليه إلا أن له بغلة والشاعر لا يملك إلا حمارة! يقول
مفضلاً نفسه عليه:

و ابنُ عمرانَ و هو شَرُّ متاعٍ
للتورى في بطانةٍ و ظهاره
حسِّنَ القربُ مِنكم فَبِحَ ذِكْرَا
مُهَ كتحسينِ المسكِ ذِكْرَفَارَه
فَهَوَ في المدحِ قَطْرَةٌ مِن سَحَابِي
و هَوَ في الحجوِ مِن زنادِي شَرَارَه
ماله مِيزَةٌ عَلَيَّ سِوَى أَنَّ
لَه بَغْلَةٌ و مالي حِمَارَه
(المصدر نفسه : ٧٧)

و من هذا النوع قوله في الشيخ زين الدين الرعّاد و قدعاب شعره و الشاعر يشبهه بالصفدع!!

لقد عابَ شِعْرِي في البريّةِ شاعراً
و ممن عابَ أشعاري فلأبد أن مهجاً
و شِعْرِي بَحْرٌ لا يُوافيه ضِفْدَعٌ
و لا يَقْطَعُ الرَّعْدُ يوماً له لُجْجاً
(المصدر نفسه : ٥٤)

و من ذلك قصة طريفة جرت له مع جمال الدين ناظر الشرقية و خلاصتها أن البوصيري كان يمتلك حمارة أعجب بما الناظر، فاستعارها منه، ثم أخذها و جهز له مئتي درهم، فكتب على لسائها إلى ناظر الشرقية قصيدة قدم لها بقوله في طرحتها: «المملوكة حمارة البوصيري!!» (باشا، ١٩٩٩: ١٧١). و يحس في ثنايا هذه القصة هجاء لاذع استتر تحت الفكاهة و السخرية (ينظر: البوصيري، ١٩٩٥: ١٦٥) و منه ما قاله حينما سرقت حمارته (المصدر نفسه: ١٩٥). و منه ما قاله فيما جرى بين رجل اسمه مسافر و صبي اسمه النجم (المصدر نفسه: ١٧٤).

٥. النتيجة

يمكن أن نلخص نتائج هذا البحث فيما يلي:

١. إن الهجاء الديني و العقائدي عند البوصيري يعد من أهم الأغراض الشعرية و قد سار الشاعر في هذا النوع على سبيل أمثال حسان بن ثابت الأنصاري، فأتى بما قام في الدين الجديد، الإسلام، من تنديد بالشرك و مخالفة الله و عبادة الأوثان و التهديد و الوعيد، فاستفاد كثيراً من آيات القرآن الكريم. و في هجوه أهل الكتاب نلاحظ أنه مطلع على كتب اليهود و النصارى فيرد عليهم بطريقة جدلية بقصد إقناعهم ببطلان ما ذهبوا إليه، فهو في هذا الهجاء يتبع طريقتين؛ الأولى الإتيان بالدلائل العقلية و الثانية الاعتماد على التاريخ.
٢. الهجاء الاجتماعي عند البوصيري و إن كان نشأ في كثير من الأحيان عن دوافع شخصية، و لكنه يدخل تحت باب النقد الاجتماعي و ذلك لأنه ضمن هذا النوع من الهجاء يتناول الآفات التي كانت منتشرة في مجتمعه، فهذا النوع يهدف إلى تحقيق مصلحة عامة.
٣. إن البوصيري في هجائه الشخصي يتعرض لبيان المثالب الأخلاقية و هو في كثير من الأحيان ينقل المخاطب إلى معرض من الصور الساخرة الكاريكاتورية من دون أن يكثر من الفحش و السب و لعل هذا يرجع إلى تلك الشخصية المرموقة التي اكتسبها بفضل مدائحه النبوية.
٤. يتسم هذا الغرض عند البوصيري بالبساطة و السلامة و خفة الروح و الميل إلى الدعابة و خصوصاً في الهجاء الشخصي.

مصادر

القرآن الكريم

- الأوسي، شهاب الدين محمود (١٩٨٥)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني**، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- ابن قتيبة (١٩٦٨)، **الشعر والشعراء**، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط٢، القاهرة: دارالمعارف.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (٢٠٠٠)، **لسان العرب**، ط١، بيروت: دار صادر.
- أبو علي، نبيل خالد نجاح، كتاب **البوصيري**، الصفحة الشخصية على موقع iugaza.edu.ps/nail/filas/2010.
- باشا، عمر موسى (١٩٩٩)، **تاريخ الأدب العربي العصر المملوكي**، ط١، دمشق: دارالفكر.
- البوصيري، شرف الدين أبو عبدالله محمد بن سعيد (١٩٩٥)، **ديوان البوصيري**، شرحه و قدم له: احمد حسن بسج، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية.
- حسين، قصي (٢٠١١)، **الأدب العربي في العصرين المملوكيو العثماني**، طرابلس: المؤسسة الحديثة للكتاب.
- حسين، محمد محمد (١٩٦٩)، **الهجاء و الهجاءون في صدر الإسلام**، بيروت: دارالنهضة العربية.
- الخوي، احمد محمد (٢٠٠١)، **الفكاهة في الأدب أصولها و أنواعها**، القاهرة: نخضة مصر.
- الدهان، سامي (١٩٥٨)، **الهجاء**، مصر: دارالمعارف.
- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر (١٩٩٥)، **مختار الصحاح**، بيروت: مكتبة ناشرون.
- الرمحشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (٢٠٠٠)، **أساس البلاغة**، بيروت: دار الفكر.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن ابيك (٢٠٠٠)، **الوافي بالوفيات**، تحقيق و اعتناء أحمد الأرنؤوط؛ تركي مصطفى، ط٢، بيروت: دارإحياء التراث العربي.
- ضيف، شوقي (١٩٦٠)، **الفن و مذاهبه في الشعر العربي**، ط١، القاهرة: دارالمعارف.
- العاني، سامي مكّي (١٩٩٦)، **الإسلام و الشعر**، الكويت: المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب.
- الفيروز آبادي، مجدالدين محمد بن يعقوب (٢٠١٠)، **القاموس الخيط**، بيروت: دار الكتاب العربي.
- قدامة، أبو الفرج ابن جعفر (لاتا)، **نقد الشعر**، تحقيق و تعليق الدكتورمحمد عبدالمنعم خفاجي، بيروت: دارالكتب العلمية.
- القرطاجي، ابوالحسن حازم (١٩٨٦)، **منهاج البلغاء و سراج الأدباء**، تقديم و تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، ط٣، تونس: دار الغرب الاسلامي.
- قزحية، رياض (١٩٩٨)، **الفكاهة في الأدب الأندلسي**، ط١، بيروت: المكتبة العصرية.
- القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق (١٩٨١)، **العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده**، حققه و فصله و علق حواشيه محمد محي الدين عبدالحميد، ط٥، بيروت: دارالجليل.
- كاسب، عزيز الله (١٣٦٦ش)، **چشم انداز تاريخي هجو**، تهران: تابش.

الكتبي، محمد بن شاکر (١٩٧٤)، فوات الوفیات و الذیل علیها، تحقیق الدكتور إحسان عباس، بیروت: دار صادر.

یوسف، خالد ابراهیم (٢٠٠٣)، الشعر العربي أيام الممالیک و من عاصرهم من ذوی السلطان، ط١، بیروت: دارالنهضة.

هجا و انگیزه‌های روانی آن در شعر بوصیری

هادی رضوان*

استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه کردستان

چکیده

هجا را در شعر بوصیری می‌توان بر اساس انگیزه‌های روانی مختلف به سه دسته هجای دینی، اجتماعی و فردی تقسیم کرد. او در هجو دینی، معاندان اسلام و به‌ویژه یهود و نصاری زمان خود را مورد خطاب قرار می‌دهد و با استدلال‌های عقلی و اشارات تاریخی به رد عقاید آنها می‌پردازد. شعر او در این نوع از هجا صریح، محکم، و استوار است. هجای اجتماعی و فردی بوصیری اگرچه ریشه در اغراض شخصی دارد، اما بیشتر هدفی اصلاحی را دنبال می‌کند. شعر او در این دو نوع از هجا، بی‌تکلف، روان و بیشتر آمیخته با طنز است. او در هجای اجتماعی خود به‌وضوح فساد و ناهنجاری‌های موجود در میان طبقات حاکم زمان خویش را به تصویر می‌کشد و در هجای فردی بیشتر از عیوب اخلاقی سخن می‌گوید. تربیت دینی، زندگی شخصی و مشکلات اجتماعی شاعر بر سبک شعری او در این غرض شعری تأثیر مستقیم داشته‌اند. نویسنده در این مقاله با روش توصیفی - تحلیلی انواع مختلف هجا در شعر بوصیری را مورد توجه قرار داده و نمونه‌های شعری مناسب را تجزیه و تحلیل کرده است.

کلیدواژه‌ها: هجا؛ انگیزه‌های روانی؛ هجو دینی؛ هجو اجتماعی؛ بوصیری.

